



قال اللورد البريطاني "أكتون" في نهاية القرن التاسع عشر: «السلطة مُفسدة، والسلطة المطلقة فساد مطلق». فالسلطة تفسد الصالح، وتجذب الطالح. والسلطة المطلقة قد تحول الرجل الوديع إلى وحش مفترس. في أحد حلقات برنامج 60 دقيقة من قناة سي بي اس CBS في يوم الأحد من 18 نوفمبر 2012، كان البرنامج يتكلم عن تجار المخدرات في كولومبيا.^[1]

فيقول أحد محققي تجار المخدرات لويس سيرا أنه كان من الصعوبة جداً تمييز تجار المخدرات من بين الناس، وكأننا نبحث عن أشباح، لأنهم يعيشون حياة بسيطة جداً في شقق صغيرة وبدون بذخ، يقودون سيارات عادية حتى لا يشدوا الأنظار إليهم.

فسألته مذيعة البرنامج لارا لوقان: «ما هي الفائدة من جمع كل هذه الأموال إذا كانوا لا يستخدموها؟». فأجابها المحقق لويس سيرا: «أذكر أنني سألت نفس السؤال لأحد أعضاء مافيا المخدرات، لأنني لم أستطع معرفة الجواب. فكان الجواب الذي قدمه لنا ذلك الشخص، أنه من أجل الحصول على السلطة». وبمعنى آخر أن الغاية الرئيسية من تجارة المخدرات ليست جمع الأموال، بل من أجل الحصول على مهابة الناس لهم واحترامهم، لأن المال والعنف هما مصدراً للقوة والسلطة أمام الناس. فالناس تخشى وتتجنب إزعاج من عنده هاتين الخصليتين.

رجل المافيا يعلم من تاريخ من سبقة أنه سيُقتل يوماً ما، أو قد يقضي بقية حياته في خلايا السجون.

ذلك المستقبل العقيم لا يمنعه من الاستمرار بأعماله الخارجة عن القانون.

لو كان يخشى هذه النهاية الوخيمة، لأخذ أمواله وذهب إلى جزيرة بعيدة يقضي فيها حياة هادئة بعيدة عن العنف والخطر. فالحياة الهادئة لا تستثيره ولا يستسيغها. فلذة السلطة وأن يكون الأمر الناهي لمن حوله ومهابة الناس له تفوق خطورة عمله حتى ولو أودت بحياته.

فمتعة السلطان تحمل تقديرًا واحترامًا من الناس لا يقدر بمال.

وفي حلقة أخرى من نفس البرنامج أذيعت منذ سنوات، كانت لمقابلة مع سجين من رجال المافيا أصله من مدينة بوسطن لم أعد أذكر اسمه.

قال بما معناه، أنه لا شيء يضاهي متعة حياة رجال المافيا، لأن الناس تخشاه وتهاه سواء في الشارع أو في المنزل أو في السوق.

فالناس تسعى لخدمته وإرضائه أينما كان وأينما ذهب، كل ما عليه أن يأمر فيطاع. وفي الشارع يسلم عليه الناس باحترام، وفي المطعم تقدم له أفضل أنواع الخمور. ويومًا كنت أشاهد حلقة لمسلسل سوبرانوس، مسلسل المافيا المشهور.

دخل رئيس عصابة المافيا سوبرانوس هو وزوجته إلى أحد المطاعم المشهورة في قلب المدينة، فإذا هناك خط طويلاً من الناس تنتظر دورها حتى يتاح لها الجلوس على طاولة.

كان من بين المنتظرين في الخط الطيبة الخاصة لزعيم المافيا سوبرانوس.

قالت الطيبة لنادل المطعم بأنها تنتظر على الخط مع الناس منذ ساعة مع العلم أنها حجزت طاولة في اليوم السابق، فاعتذر لها النادل على زحمة المطعم وطلب منها الصبر، فهناك خط طويلاً من الناس أمامها.

ومجرد أن دخل سوبرانوس بباب المطعم أتاه النادل مرحباً وأشار له إلى طاولة في صدر المطعم فارغة. رأى سوبرانوس طبيته الخاصة تنتظر على الخط فسلم عليها ثم مشى هو وزوجته وراء النادل ليجلس على طاولته.

وبعد أن جلس وأشار بيده للنادل إلى طبيته الخاصة. تقدم النادل من الطيبة وهي مازالت تنتظر في منتصف الخط وطلب منها بكل احترام أن تتبقي إلى طاولة لتجلس عليها.

لو كان سوبرانوس رجلاً عادياً لانتظر ساعة أو ساعتين من أجل طاولة في ذلك المطعم، كما كانت الطيبة تنتظر. ولكنه جذب انتباه النادل إليه منذ أن دخل الباب، فتقدم النادل إليه مرحباً وقدم له طاولة على الفور رغم أنه لم يكن عنده حجز مسبق.

هذا التمجيل والاحترام تخاطر بعض الناس بحياتها من أجل الحصول عليه. فإذا عيش الملوك، وإنما الذهب إلى القبور. هذا السلوك من الناس استفز غريزة بعض الباحثين من علماء النفس فدرسواه من خلال بعض التجارب. أشهرها تجربة حصلت في عام 1971 سميت بتجربة سجن ستانفورد، قادها البرفسور فيليب زيمباردو من جامعة ستانفورد. جرت وقائع التجربة في أحد أقبية جامعة ستانفورد في مدينة سان فرانسيسكو في ولاية كاليفورنيا، حيث صممت الغرف بشكل يماثل السجن تماماً.

وملخص التجربة أن علماء النفس اختاروا 24 طالباً أكثر ملائمة من بين 75 طالباً من جامعة ستانفورد استجابوا لإعلان في الجريدة الرسمية ليقوموا بدور الممثلين في التجربة مقابل أجر من المال.

بعض هؤلاء الطلاب كانوا أصدقاء في الجامعة. المطلوب من الطلاب هو أن يمثلوا دور السجين والسجان لمدة أسبوعين.

قسمت المجموعة عشوائياً إلى قسمين متساوين، مساجين وسجانين، من خلال القرعة عن طريق استخدام قطعة نقود. فيعد أن وزعت الأدوار زود الحراس بأزياء عسكرية وعصي ونظارات داكنة لتجنب التواصل البصري مع المساجين. ثم قبض على الطلاب الممثلين لدور المساجين من بيوتهم من قبل شرطة المدينة بعد الاتفاق معهم، ووجهت لهم تهمات بالسرقة والسطو المسلح على المنازل والمتجز. وزجوا في أقبية سجن جامعة ستانفورد بعد أن تم تفتيشهم عراة، ورشوا بالماء ودواء القمل ثم طلب منهم أن يرتدوا ثياب المساجين.

طبع على لباس كل سجين رقم خاص ينادى به عوضاً عن اسمه حتى يتأقلم مع الوضع الجديد. وضعت على كاحل المساجين سلاسل من حديد ليشعروا بالإهانة. وأخذت صور المساجين وبصمات أصابعهم وتلية حقوقهم كما يفعل بال مجرمين الحقيقيين. بدأ التحقيق معهم وإهانتهم من قبل الطلاب الممثلين لدور السجان أو الحرس. طلب من الحرس عدم استخدام العنف مع المساجين، وأن إدارة السجن تقع على عاتقهم خلال تلك الفترة، فلهم أن يتصرفوا بما يروه مناسباً على شرط أن يشعروا المساجين بالخوف. فليس للمساجين حياة خاصة يتمتعوا بها خلال هذه الفترة، بل هم رهن الوضع الجديد والسلطة الجديدة. فعليهم بالطاعة وتنفيذ أوامر أربابهم الجدد من الحراس، وإلا سيتعرضون للإهانة والتوبخ.

إنه أسلوب الاستخفاف مقابل الطاعة، إنه أسلوب فرعون {فَاسْتَخَفَ قَوْمًهُ فَأَطَاعُوهُ} الزخرف:54.

على عكس المساجين فإن الحرس كانوا يتمتعون بميزات خاصة كأن يعودوا إلى بيوتهم بعد انتهاء إضرابه وردتهم. أثار اهتمام الباحثين في هذه التجربة أن بعض الطلاب المتطوعين بدور الحراس تطوعوا للعمل لساعات إضافية بدون أجر مقابل، فلقد التبس عليهم دورهم الجديد وأعجبهم وبدأوا يعاملون المساجين بإهانة أكثر مما هو مطلوب منهم لينفذوا أوامر أسيادهم الجدد، فليس لهم أي خيار {فَالَّذِي فِرَّ عَنْ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَأَيْتُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ} غافر:29، مما اضطر بالباحثين لأن يوقفوا التجربة بعد ستة أيام عوضاً عن المدة المفترضة لأسبوعين خوفاً من أن تجر التجربة عواقب وخيمة على المساجين.

أدى هذا القرار إلى ازعاج بعض الحرس، لقد سرهم دورهم الجديد دور الامر الناهي، دور فرعون عندما قال: {أَنَّا رُكُمُ الْأَعْلَى} النازعات:24.

فقدة فرعون تنتج بسبب استخفاف قوم بقوم أو فرد بآخرين حتى يحصلون على الطاعة، التي ينتج منها الشعور بالكبراء والاستعلاء، فهو شعور فيه نشوة، كما حصل بالتجربة مع الحرس والمساجين. كل الناس تظن أنها معفاة من هذه العقدة، ولكن التجارب تثبت عكس ذلك. فلا تعرف خبايا المرء إلا عندما يمر بالامتحان.

فالكبراء صفة كامنة في الإنسان تظهر عندما توضع تحت المجهر {كَلَّا إِنَّ إِنْسَنَ لَيَطْفَلُ} العلق:6.

وبعد انتهاء التجربة جلس اثنان من الممثلين يتعاتبان، أحدهما كان السجين والآخر كان السجان، فقال السجين للسجان: «ألم نكن أصدقاء؟ فكيف تعاملني بهذا الأسلوب اللا إنساني؟».

احترار صديقة السجان في الإجاهة وقال: «لا أدرى». هذا قد يشرح سلوك الدكتاتوريات ورجال المافيا ضد كل من يتعرض لسلطانهم.

لهم اغتالوا من أصدقائهم ومن أقرب أقربائهم، لقد سمعنا بدكتاتور معاصر اغتال صهره خوفاً على كرسيه وسلطانه، وآخر اغتال زوجي ابنته.

وفي محاضرة لتاريخ الخلافة العثمانية للدكتور أحمد بن يوسف الدعيع، وكذلك في كتاب الإسلام والاستبداد السياسي

لمحمد الغزالي، وكذلك في كتاب Empires of the Sea للمؤلف Roger Crowley يذكرون أن بعض السلاطين كانت تقتل أي منافس محتمل للسلطة من أخوة وأبناء أبriاء سواء كانوا كباراً أو صغاراً أو رضع خوفاً من اغتصاب الملك منهم في المستقبل، حتى صار ذلك قانوناً في البلاط العثماني سمي بالعقوبة الوقائية. حب السلطة قد يقتل الأبرياء حتى ولو كان الحاكم يحكم باسم معتقد سماوي. فهناك فرق بين المعتقد السماوي وبين من يمثل ذلك المعتقد.

ابتدأ هذا الإجراء الدموي من السلطان بايزيد الأول بن مراد، الذي قتل أخاه يعقوب بيده خنقاً سنة 1389 م ثم تحول إلى قانون ثابت.

وقتل السلطان محمد الثالث عام 1595 م تسعه عشر أخاً له واثنين من أبنائه، في يوم توليه للعرش. إنها سنة فرعون في قتل الطفل حتى ولو كان رضيعاً خوفاً من أن يناظره على السلطة في المستقبل. يقول الشيخ محمد الغزالي: «إن أكثر السلاطين الذين جاءوا بعد سليمان القانوني، كانوا يقتلون إخوانهم بمجرد اعتلائهم للعرش، وكانوا يقضون حياتهم في القصور بين حاشية كبيرة العدد من الجواري والخصيان، عاكفين على ملذاتهم من لهو وشراب، تاركين إدارة الشؤون في يد الحظية التي تتسلط على أفكارهم. ومن أمثلة ذلك أن جارية من أهل البندقية اتخذها (مراد الثالث) ضمن حريميه، وارتقت حتى صارت السلطانة، وما لبثت حتى أصبحت المسيطرة على سياسة الدولة الداخلية والخارجية، وبقيت السلطة في يدها ثمانية وعشرين عاماً، تعين من تشاء للصدارة العظمى وغيرها من الوظائف الكبرى. وانتقلت السلطة بعدها إلى غيرها من نساء القصر، فبقين يدرن شؤون الدولة فوق الثمانين عاماً».

تخلت الدولة العثمانية عن هذا القانون فيما بعد، ولكن بقي السلاطين يمارسون سياسة العقوبة الوقائية لكل من يخشون منافسته من أقاربهم على سلطان حكمهم، وذلك باحتجازهم داخل البيوت، ومنعهم من الاتصال مع الناس. لقد حصلت حوادث تاريخية عديدة تفيد بأن الأبناء حاولوا سلب سلطان أبيهم أو أخيهم عن طريق الخلع أو القتل لاستلام الحكم مكانه. فتارikh الإنسان مليء بالقتل من أجل كرسي الحكم.

ومن إحدى القصص التي أرقتنـي، قصة امرأة قتلت رضيعها من أجل الحصول على السلطة، ففي كتاب «الـ 48 قانون للقوة»، يقول القانون رقم 15: «دمـر عدوـك كـلـياً وبدـون رحـمة».[2] يذكر الكاتب مثـلاً من التـاريخ على ذلك عن إمبرـاطـورة الصين اسمـها "وولـا". إنـها امرـأـة عـطـشـيـ لـلـسلـطـةـ، وـعـدـيمـةـ الرـحـمـةـ منـ أجلـ الحصولـ علىـ غـايـتهاـ.

عـنـهاـ الـاستـعدـادـ لـلـتـضـحـيـةـ بـأـغـلـىـ ماـعـنـهاـ مـنـ أـجـلـ الحصولـ لـكـرـسـيـ السـلـطـةـ وـالـسـيـطـرـةـ عـلـىـ زـمـامـ الـحـكـمـ. لقد بدأـتـ كـإـحـدىـ حـرـيمـ إـمـبرـاطـورـ. وـبـعـدـ أـنـ مـاتـ إـمـبرـاطـورـ، لمـ يـرـقـ لـهـ أـنـ تـسـلـكـ المـسـارـ التـقـليـديـ بـأـنـ تـعـيـشـ بـقـيـةـ حـيـاتـهـ مـعـزـوـلـةـ فـيـ دـيـرـ حـرـيمـ إـمـبرـاطـورـ الـراـحـلـ.

فـحتـىـ تـحـصـلـ "وـوـ" عـلـىـ غـايـتهاـ، أـغـرـتـ اـبـنـ إـمـبرـاطـورـ فـيـ إـحـدىـ الـحـفـلـاتـ وـصـادـقـتـ زـوـجـتـهـ، فـأـدـخـلـهـ إـمـبرـاطـورـ الـجـدـيدـ إـلـىـ مـلـكـةـ حـرـيمـهـ.

حـمـلـتـ مـنـهـ ثـمـ قـتـلـتـ طـفـلـهـ لـأـنـهـ تـعـلـمـ أـنـ الـمـتـهـمـ الرـئـيـسـيـ سـيـكـونـ الزـوـجـةـ الغـيـورـةـ لـإـمـبرـاطـورـ الـجـدـيدـ. أـتـهـمـتـ زـوـجـهـ إـمـبرـاطـورـ بـالـقـتـلـ وـأـعـدـمـتـ.

لـقـدـ تـخـلـصـتـ "وـوـ" مـنـ يـقـفـ عـقـبـةـ فـيـ الحصولـ عـلـىـ هـدـفـهـ، وـأـخـذـتـ مـكـانـهـ كـإـمـبرـاطـورـةـ. تـرـكـهـ زـوـجـهـ الـجـدـيدـ تـحـكـمـ إـمـبرـاطـورـيـةـ لـأـنـهـ كـانـ مـشـغـلـاًـ بـمـلـذـاتـهـ.

لـقـدـ حـكـمـتـ إـمـبرـاطـورـةـ الـجـدـيدـ الـصـينـ حـتـىـ بـلـغـتـ الـثـمـانـيـنـ مـنـ عـمـرـهـاـ عـنـدـمـاـ أـجـبـرـتـ عـلـىـ التـنـازـلـ عـلـىـ الـعـرـشـ.

وخلال فترة حكمها تخلصت من أولاد الإمبراطور، وكل من حاول أن يتحدى عرশها.
إنه جنون السلطة.

فالذى يحصل على السلطة بطريق فاسد، فهو طاغية فاسد، وسيكون حكمه فاسداً.
لأن همه ليس الإصلاح والعدل، بل البقاء على العرش بأى ثمن.

فهناك نشوة لا تقدر بثمن لمن تسلم زمام السلطة ليكون أمراً ناهياً على عباد الله، ولا يشعر بذلك إلا من كان في قلبه مرض،
وما أكثرهم.

إنها عقدة فرعون كانت تحيك بنفس "وولـW" منذ أن كانت جارية.

هذا السلوك البشري الاستبدادي لم يقتصر على فئة معينة من الناس بل انتشر في أماكن العبادة بين رجال الدين من أجل
التقرب من السلطان المطلق، ويكون جزءاً من العصابة الحاكمة.

إن أشد الفساد هو فساد الكاهن (رجل الدين) الذي تتبعه الناس، لأنه يغوي الناس بلسانه عن طريق ترديد آيات الكتاب
المقدس، فلسان الكاهن أغوى من سيف السلطان.

إن للسان لسعات لا يجاريها سيف قاطع. فلسان الكاهن شريك لسيف السلطان، لأنه أضفى على سيف السلطان قداسة دينية
 يجعله مباركاً.

فالكاهن الفاسد ضرورة تاريخية لاستمرار شرعية فرعون، وبالمصطلح الحديث شرعية (الدكتاتور)، سواء كان فرعون
المذكور في الكتب المقدسة، أو فراعنة هذا الزمان. فأكثر الناس تتبع من له لسان رنان باسم الدين، ولا تفكر عندما تسمع
من يبدأ كلامه باسم الله الرحمن الرحيم.

فالكاهن يحصل على ما يبغى بدعمه للسلطان.

فكسب المال الغزير عند الكهنة بإرضاء السلطان صنعة رائجة منذ قديم الزمان.

فما أكثر رجال الدين الذين تناقض أفعالهم أقوالهم، فلسان هؤلاء وعلمهم معروض دائماً في أسواق السلاطين ولمخابرات
القوى العظمى في الأمسار.

فأكبر نكمة دخلت على الدين أنه صار مصدر الرزق الوحيد لبعض المتفوهين منهم، ومن باعوا ضمائرهم وعلمهم من أجل
متاع قليل.

لذلك نجد الدكتاتور لا يتنازل عن كرسيه رغم البلايين من الدولارات التي يملكها في حساباته في البنوك، فلا شيء عنده يعادل
متعة الأضواء والسلطان على رقاب الناس.

يأمر الناس فيطاع، وينهى فتتفق. يرفع من ينفذ أوامره، ويقتل من يعارضه.

إنها لذة الإنسان لأن يكون الامر الناهي، إنها لذة قول كن فيكون {وَإِذْ قَالَ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً} ٤٤ قَالُوا
أَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الْدِمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ} ٤٥ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ} البقرة:30.

فالمتعة عند رجل المافيا هي نفسها عند الدكتاتور، ليست بجمع الأموال.

فعقلية الدكتاتور كعقلية رجل المافيا تقول: «ما فائدة الأموال إن لم يكن هناك سلطة استعبد بها رقاب الناس».

إنها عقدة الإنسان منذ قديم الزمان لأن يكون إلهًا على الناس، إنها عقدة فرعون حين قال: «أنا ربكم الأعلى».

وبالمصطلح الفرعوني الحديث: «إما الدكتاتور، وإما أن تخرب البلد». إنها عقدة استعظام النفس مقابل احتقار الآخرين.

